الكتب

ملحمـــة عبقر

للشاعر المطبوع شفيق معلوف

رمى الكثيرون الشعر العربي بالعجز والقصور عن متابعة الشعر الغربي في القصة والملحمة والرواية التمثيلية ؛ ولكن ناظم عبقر ضرب لهؤلاء المثل الحي على أن العيب واقع على عاتق الشعراء أنفسهم لا على اللغة ولا الشعر . ولقد ظلت عبقر مدى العصور تتردد في ألفاظ كثير من الشعراء ولكن لم يفكر واحد منهم في أن يخرج لقراء الضاد قصيدة عنها بقدر ما توحي اليه من خيال ؛ كأنها أبت إلا تكشف سترها وتميط اللثام عن حقيقتها إلا لهذا الشاعر المحلق في سماء الجمال، فحمله شيطانه إلى عبقر ، وأوديتها السحرية ؛ وهناك كشف له سر الحياة ، فوقف على المجهول من أمرها ، حتى إذا عاد إلى دنياه صوره بلغة أهل الأرض ؛ فأبدع في ذلك ما شاء له الابداع ، ورسم هذه العوالم الدفاقة بالسحر والخيال وقربها إلى قارئيها فاذا هم يعيشون ويتحركون ويتنفسون فيها ، وإذاهم يحيون في مرابط الجن، ويقضون مع حورها لحظات لا يحسون فيها لغب الواقع ، ولا تعب الحياة وأوضارها، ولست أدري أيهما خلد الآخر : هل خلق شفيق عبقر ، أم هي التي خلقته؟

حمله شيطانه إلى عبقر ذلك الشيطان الذي :

في فمه من سقر جذوة يطير منها الشرر الثائر
ووجهه جمجمة راعه أنيابها والمحجر الغائر
كأنما محجرها كوة يطل منها الزمن الغابر

ويمضي الشيطان بصاحبه إلى عبقر ليريه «جنا من النور جلابيبها» ، وإذ يهبط الأثنان عبقر ، يرى الشاعر « الغمائم الزرق ، وفي أبراج المنازل ، ثور ضجة بها يضيق الأفق الأوسع ، ثم يحط به الشيطان عند عرافة عبقر فاذا بها عجوز شمطاء طواها الكبر ، ولقد أبدع الشاعر أيما إبداع في وصفها بقوله :

تلف ثعبانا على وسطها يكمن في نابه كيد القدر
تجامر الصندل من حولها تأنب الجن عليها زمر
ينبعث الدخان من شعرها ويلتظي في مقلتيها الشرر
كأنما الله لدى بعثها زودها بكل ما في سقر

وفي حديث العرافة له نرى الوصف المر الأليم للإنسان ، وما انطوت عليه نفسه من مكر وخديعة ، ونرى روح التهكم تنبعث على لسان العرافة ساخرة بكبرياء ابن آدم وقد خال « نفسه أعلى من ربه ، وحسب عيه فضلا ، وأية سخرية أشد وقعا مما انطلق به لسانها من أنها :

تخشى على الثعبان من شره
في نابه السم كان وصار في صدره

وينطلق به شيطانه إلى امرأة قد كورت من حلقات النور أضلاعها تلك هي « الشهوة » ، وإن وصفه الرائع لها ، ليجعل القارىء يخال الشهوة قد جسمت امرأة وهي تضج :

من لي بحب نوره ينبلج من شرر محتدم في المقل
من لي بثغر لاهب تنفرج ثغرته عن شعلات القبل
يا حامل الجسم ألا أعطنيه وخذ إذا شئت خلودي ثمن
وشاحي النارى من يشتريه فإنني أبيعـــه بالكفن .

ويمضي به الشيطان إلى الكاهن سطيح الذي يرى أن الله خلصه برحته حين استل منه العظام « وملأ الفراغ من حكمته ، أما الكاهن شق فقانع بنصفه ، وما ضره أن حباه الله بيد واحدة إذ :

هل تنفع اليدان والواحدة تهدم ما تشيده الثانيه

ويخلص القارىء من مغزى هذه الحكمة أن في النقص كمالا ، ولكن الشاعر يهوى به الأسلوب في قوله « والله يهديني سواء السبيل » ، فهي نابية في موضعها لا تلائم الذوق الشعري ، وإنك لتلمح رثاءه للبغايا وألمه لهن من خلال وصفه الشعري الجميل لهن فهن :

دسن من الحديد محمره ورحن يقحمن البراكينا
يلغن في الجمر ويغبنه غبا ويرشقن الشياطينا
زج بهن الله في عبقر يبلو بهن العبقريينا

وينتهي بالشاعر المطاف عند رفات العبقريين من الشعراء والأدباء ، وفي نشيد جماجم هؤلاء العباقرة تلمح تقديس الشاعر لهم ، فهؤلاء أرواحهم تبنى قباب الخلود « بغير أحجار الورى » ، وهم في موتهم يعيشون على . . الحب الذي :

إن كانت الأرض جحيماله وكان فيها تهأ الأرض

هذه جولة في عبقر المعلوف ، فاذا كان فوزي قد حلق على « بساط الريح » ، فان أخاه في عبقر قد تغلغل في ثناياها مع حورها وكهانها وعرافتها وشياطينها

وإن خيال شفيق لمنسجم مع تفكيره ، وهذا سر إبداعه ، فلاجرم إذا حلق خياله من شاهق ولم يسف في شعره . ولا عجب إذا طالعنا ذلك الشاعر بنفحات من الشعر الخالد في لفظ متسق ، وجمال مطبوع ، وبيان عذب فصيح ، وخيال لو قيل له اختر صاحبا لما اختار غير شفيق.

حسن حبشي